

ذكر بلاد الهند

مكتبة

أ. د. محمد عبد الحميد عيسى

لأورخ مجهول

تحقيق : د . لويس مولىنا

عرض

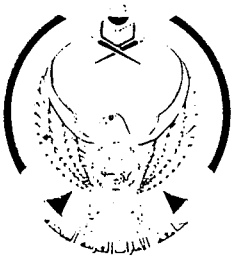
محمد عبد الحميد عيسى صقر

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

العدد 36 - السنة الرابعة عشرة 1408 هـ - 1988 م.



طبع هذا العدد على نفقة جامعة الامارات العربية المتحدة
بمناسبة مرور عشر سنوات على انشائها

تصَدَّر عَنْ

الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد

مكتبة

أ.د. محمد عبد الحميد عيسى

ذكر بلاد الأندلس لمؤرخ مجهول تحقيق : د . لويس مولينا

عرض : د. محمد عبد الحميد عيسى

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

من بين المخطوطات المصورة ، تحتفظ مكتبة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدر يد بالمخطوط رقم ٣٦ بعنوان «ذكر بلاد الأندلس» لمؤلف مجهول ، أما المخطوط الأصلي لهذه الصورة ، فيوجد بالخزانة العامة بالرباط ويحمل رقم ٨٥ جـ من مجموعة «الغلاوي» ويتكون من ٨٩ ورقة .
ولقد ظل هذا المخطوط كامنا بعيدا عن النشر رغم أنه كان واحداً من أكثر المصادر التاريخية الأندلسية مروراً بين ايدي الباحثين ، كما قام الاستاذ الدكتور حسين مؤنس بنشر بعض قطع منه في مقالات له بمجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدر يد منذ عام ١٩٦٣ م . وبعد ذلك وعد اكثر من واحد من الباحثين العرب والاجانب بنشره دون أن يتعدى ذلك مجرد الوعد الى التحقيق الفعلي الى ان قيض الله له الباحث الاسباني المتخصص في الدراسات العربية «لويس مولينا» لكي يتخذ من دراسته وتحقيقه موضوعاً لرسالته للدكتوراه ، وقام بترجمة النص الى اللغة الاسبانية وحصل بذلك على أطروحته في يونية من عام ١٩٨١ م . كما عمل المجلس الاعلى للبحث العلمي ، بأسبانيا على نشرها في عام ١٩٨٣ م .

المؤلف المجهول :

وقف الباحثون حيارى كثيرا أمام هذا الكتاب متسائلين عن مؤلفه الذي نجح في اخفاء شخصيته و اخفاء كل ما يدل عليه ، كما أنهم أيضا لم يتمكنوا من التحديد الفعلي لزمن كتابته ، أو تاريخ نسخه ، وأنقل إلى القراء الاعزاء ملخصاً معرباً من الدراسة الاسبانية التي قام بها صديقي العزيز الدكتور «لويس مولينا» للتقديم لهذا الكتاب حيث بين أن المشكلة الحقيقية التي تواجه الباحث في هذا الكتاب تكمن في عدم وجود أية إشارة تدل على اسم الكتاب الحقيقي أو على مؤلفه ولقد ظل هذا الكتاب مهملاً حتى القرن السابع عشر الميلادي حين بدأ «المقري» مؤرخ تلمسان الذائع الصيت في وضع كتابه الرائع «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» ولكن دون أية إشارة الى مؤلفه .

وتشير الدلائل الى ان الرجل الذي صاغ كتاب «ذكر بلاد الأندلس» ليس هو مؤلفه الحقيقي ، بل من الممكن القول بأنه لا يعدو ان يكون مجرد ناسخ فحسب قام بنقل هذه النصوص من كتاب أقدم . وإذا كان قد نجح في حجب شخصيته عن جميع الناس ، فإن الأمر يزداد غموضاً وطرافة إذا ما قلنا إن هناك صعوبة أكبر : ألا وهي تحديد تاريخ كتابة هذا المؤلف .

من هو المؤلف :

من أطرف ما يثير فضول الباحث وغيظة في نفس الوقت أن الرجل نجح في اخفاء شخصيته تماما ، وانه حرص بشدة على عدم القاء أي شعاع من الضوء يسمح باستكشاف اسمه أو موطنه أو أي شيء عن شخصيته .

الشيخ احمد بن محمد المقرئ التلمساني ، صاحب كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» المتوفي عام ١٠٤١هـ - بمصر ، يعد من أحسن من احتفظ لنا بكتاب عام عن تاريخ الأندلس ، هو المرجع الأساسي لجميع الباحثين والدارسين في هذه الحقبة التاريخية ، ولقد أشار مرارا الى كتاب «الذكر» ناقلا منه بعض رواياته ، ورغم قرب «المقرئ» من العصر وذاكرته القوية إلا أنه كان يشير الى مؤلف هذا الكتاب بقوله «صاحب كتاب الجغرافيا» و «أحد العلماء» و «أحد مؤرخي الأندلس» و «مؤرخ» و «مؤرخ متأخر» و «مؤرخ مغربي» ، وهذه اشارات - باستثناء الأخيرتين - غامضة لا تدل على شيء فاذا كان ذلك هو حال المقرئ - العالم الثقة - المشهور بدقته في التحري وعلميته وسعه اطلاعة ، فمما لاشك فيه أن هذا المؤلف بالفعل مجهول الاسم والكنية ولا يحتمل التعرف عليه ، لكن ماذا تعني عبارتي : «انه متأخر» و «مؤرخ مغربي» ؟

أما الوزير الغساني والذي قام بسفارة نيابة عن سلطانه في المغرب الى بلاط ملك اسبانيا «كارلوس الثالث» من أجل استرداد مكتبة مولاي زيدان التي استولى عليها الاسبان من سفينة فرنسية كانت قد هربت بها من المغرب ، ولقد سجل أحداث سفارته هذه في كتاب قيم يعرف باسم «رحلة الوزير في افتكاك الأسير» ، وضمن «الغساني» كتابه كثيرا من المعلومات عن الأندلس ومدنه الاسلامية ، وأشار مرارا الى كتاب «الذكر دون تحديد لاسم كاتبه أو مؤلفه» .

الملاحظة الوحيدة التي يمكن ان تلقى بصيصا من الضوء على شخصية كاتب «الذكر» فهي في قول المقرئ «أنه متأخر» و «مؤرخ مغربي» فكون المؤلف متأخرا سوف نتناوله في تحديدنا لفترة كتابة المخطوط ، أما أنه «مغربي» فأننا نميل الى ذلك مع المقرئ لوجود عدد من المؤشرات الاخرى التي تؤيد ذلك الفرض منها :
١- الاهتمام الكبير الذي يتجلى على صفحات الكتاب لذكر مدينة «فاس» مما قد يوحي بأن المصدر الاصيل لهذا الكتاب كان مؤلفا «فاسيا» .

٢- العلاقة الوحيدة التي تربط بين المؤلفين اللذين استعملنا كتاب «ذكر بلاد الأندلس» ونقصد بهما المقرئ والغساني ، هي تواجدهما في مدينة فاس في فترة من حياتهما فالأول عاش فيها ربحا من الزمن ، أما الثاني فكانت المدينة مقرا لثواه الأخير مما يمكن أن يوحي لنا بأن مخطوط الذكر كان بهذه المدينة .

٣- أهم مركزين للثقافة الاسلامية عن عصر بني مرين كانا في مدينتي فاس ومراكش الى درجة أن كلا منهما قد برزت بنفسها كمركز علمي متميز . وفي الوقت الذي تكثر الاشارات في المخطوط عن مدينة فاس وفضائلها ، لا يظهر اسم مدينة مراكش في أي صفحة من صفحات الكتاب ، مما يوحي بانتماء المؤلف الى هذه المدينة العريقة .

تاريخ كتابة «الذكر»:

حاولنا في السطور السابقة التحديد المكاني لكاتب هذا النص ، ولنحاول الآن إلقاء بعض الضوء على الفترة التي كتب فيها النص .

نستطيع ان نقول باطمئنان أن كتاب «ذكر بلاد الأندلس» لا يمكن ان يكون مكتوبا قبل سقوط مدينة الجزيرة الخضراء في ايدي المسيحيين ، ولا أن يكون متأخرا عن سقوط مدينة ألمرية . بتوضيح أكثر نعتقد أن

الكتاب من أبناء النصف الثاني من القرن الرابع عشر أو بدايات الخامس عشر الميلاديين .
وتحديد الفترة بدقة أكثر أمر بالغ الصعوبة ، كما أن المصادر التي استعان بها الكاتب في صياغة مؤلفه لا
تستطيع أن تقدم لنا أية مساعدة في هذا المجال ، لأن أحدثها يرجع الى ما قبل النصف الثاني من القرن الرابع
عشر الميلادي ، وهو كتاب ابن رشيق الذي مات بعد سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م .
القراءة المتأنية لمحتوى الكتاب لا تساعد أيضا في القاء أي ضوء يمكن أن يكشف عن تاريخ كتابته ، وإن
كانت بعض الفقرات لها من الدلالات ما يشير الى بعض المعلومات ونقص هذه الفقرات الأحاديث التي تتناول
فضل الأندلس .

سوف يجد القارئ المتعمق ان العدد الاكبر من هذه الاحاديث الواردة في الكتاب تشير الى الثواب العظيم
الذي ينتظر الشهداء ومن جادوا بأرواحهم دفاعا عن الاسلام على أرض الأندلس .
فاذا وافقنا على أن الإشارة الى هذه الأحاديث لم يكن مصادفة بقدر ما كان هدفا مقصودا لذاته ، فإنه يمكن
ان يقدم لنا بعض الدلالات في تحديد فترة صياغة الكتاب .

واذا كنا قد حددنا أنه كتب بعد سقوط الجزيرة الخضراء في عام ٧٤٤هـ / ١٣٤٤م ، وقبل سقوط ألمرية في
عام ٨٩٥هـ / ١٤٨٩م فعلى أن نبحت على مدار هذه الفترة الطويلة عن لحظة معينة يتحقق فيها شرطان : أن
تكون المملكة النصرية في غرناطة معرضة لخطر شديد ، وان تكون مملكة بني مرين على استعداد لمساعدة
أشقائهم في الدين في بلاد الأندلس ولديهم الرغبة في ذلك . فإذا كان الشرط الأول قد ظل حاضرا باستمرار على
مدار هذا القرن ونصف القرن الذي تلاه بالنسبة للمملكة النصرية ، لمواجهة أعداء الاسلام باستمرار ، فإن
الحال لم يكن كذلك باستمرار بالنسبة لبني مرين لأن سقوط الجزيرة الخضراء في أيدي المسيحيين والهزيمة
التي لاقاها بنو مرين في معركة طريف قد وضعا حدا معيناً لتدخل بني مرين المباشر في الحروب ضد المسيحيين
في الأندلس ، ومع ذلك فلن نعدم على مدى هذه الاعوام الطويلة ، توافر هذين الشرطين احيانا بصورة واضحة ،
وذلك ابان حكم السلطان النصري محمد الخامس والمريني عبدالعزيز ، فأولهما خشية مواجهة حملة صليبية
ضد مملكته في غرناطة طلب مساعدة بني مرين ورحب بذلك السلطان عبدالعزيز ونادى بالجهاد في المغرب ومن
المحتمل قيام الاسطول المريني بمعاونة الغرناطيين في استرداد مدينة الجزيرة الخضراء في عام ٧٧٠هـ /
١٣٩٩م . ولكن جاء موت السلطان المريني عبدالعزيز ليضع حدا نهائيا لتدخل بني مرين في الأندلس .
فهل هذه الأعوام هي أعوام كتابة هذه المدونة التاريخية ، العلم لله وحده ؟ .
وهل من أجل ذلك جمع المؤلف كل هذه الأحاديث في فضل الأندلس مع العلم أنها كانت تدور في أرجاء
الأندلس مئات الاعوام قبل ذلك .

المصادر الجغرافية لكتاب الذكر :

اعتمد المؤلف تماما على مصدرين هما : كتاب الجغرافية «للزهري» ولدينا هذا الكتاب كاملا في عدد كبير من
المخطوطات وكتاب ترصيع الاخبار للعدري الذي لم يصلنا منه الا بعض الاجزاء ولذلك كان من السهل تحديد
ما نقله المؤلف من كتاب الجغرافيا بصورة أكثر وضوحا مما حدث مع كتاب ترصيع الاخبار للعدري . كما
استفاد الكتاب من مؤلفات القرويني حيث نقل بعض النصوص من كتابيه «آثار البلاد» و «عجائب
المخلوقات» .

بالإضافة الى هذه المصادر ذات التأثير المباشر في الكتاب فإننا نجد ان للكتاب مصادر أخرى وان كانت غير
مباشرة منها «الروض المعطار» للحميري « و «نزهة المشتاق» للدريسي ، و «جغرافية الأندلس» للرازي ، و
«المسالك والممالك» للبكري بالإضافة الى غيرهم من المؤلفين الجغرافيين الذين أشار إليهم الكتاب .

المصادر التاريخية للذكر:

يكاد ينقسم كتاب «ذكر بلاد الاندلس» من الناحية التاريخية الى قسمين واضحين تماما في انقسامهما ، أولهما القسم الذي يروي تاريخ ما قبل الاسلام ، والثاني هو الذي يتناول تاريخ الاندلس من الفتح وحتى عصر ملوك الطوائف .

المطالعة المتأنية للقسم الاول الذي يتناول عصر ما قبل الاسلام تبين لنا أنه على درجة عالية من القيمة والأهمية ، ليس من وجهة نظر التاريخ ، وانما وجهة نظر التدوين التاريخي ، لقد أضاف هذا القسم معلومات جديدة وخاصة فيما يتصل بالعلاقة بين كتابي الرازي «تاريخ ما قبل الاسلام» و«مدونة الرازي» . وهي نقطة معقدة جدا وما زالت حتى الآن . يضيف «الذكر» معلومات جديدة ، لاشك في ذلك ، ومنها مثالا تلك القائمة الطويلة باسماء الملوك الافارقة والرومان وبعض النقاط الأخرى التي تجعل من هذا النص التاريخي اقرب النصوص العربية شبيها بما وصل الينا من الترجمة الاسبانية لمدونة الرازي ، بل أن الكتاب يتفوق على هذه الترجمة بتقديمه مزيدا من الايضاحات والبيانات ولا يعني هذا أن جميع الصعوبات التي تقابلنا في مدونة الرازي قد وجدت حلا مرضيا وتفسيرا مقنعا بنشر هذا الكتاب ، وانما علينا ان ننتظر طبع النص العربي من «تاريخ أروسيوس» الذي ظهر حديثا وما زال تحت الطبع حتى الآن .

روض القرطاس:

يعتبر كتاب الروض النص العربي الوحيد الذي نجد له علاقة قوية بكتاب «ذكر بلاد الأندلس» ، ومن الكتب التي تعتبر نموذجا تقليديا يدل بوضوح على فن التدوين المغربي وان كان قد تعرض للتاريخ الاندلسي بصورة عرضية .

ولقد قام محقق الكتاب بدراسة قيمة استطاع ان يستخلص منها أن كاتب الذكر لم يكن ينقل مباشرة من كتاب روض القرطاس ، وأنه من المحتمل ان كلا الكتابين كانا ينقلان من مصدر تاريخي مغربي واحد ما زال مجهولا ولم يصل الينا حتى الآن . وما لدينا الآن من معلومات تاريخية في كتاب الذكر انما هي في الحقيقة «القسم الاندلسي» من ذلك المصدر المجهول الذي لم نعثر عليه بعد .

ابن حيان وآخرون:

يعد ابن حيان القرطبي «شيخ مؤرخي الاندلس» المصدر الأساسي الراسخ لكل من اشتغل بالتدوين التاريخي عن الاندلس منذ الفتح وحتى عصر ملوك الطوائف ، ولا تشذ مخطوطتنا هذه عن الآخريات في اعتمادها على كتاب ابن حيان «المقتبس في أخبار بلد الأندلس» . وحيث أن كتاب ابن حيان هذا - مثله مثل الغالبية العظمى من المؤلفات الأندلسية الأخرى - لم يصلنا كاملا ، فهنا صعوبة المقارنة لتحديد ما استفاده الذكر على وجه التحديد من كتاب «المقتبس لابن حيان» . أما ما ورد في مدونة «الذكر» من اشارات الى اسماء مؤرخين أندلسيين سابقين على «ابن حيان» مثل احمد بن موسى الرازي ، و«ابن الفرضي» و«الخشني» وغيرهم وما نقل من كتاباتهم فنعتقد بنقلها من كتاب «ابن حيان» دون الرجوع الى مصادرها الاصلية .

كتاب «ذكر بلاد الأندلس» والمؤرخون المعاصرون :

لم يكن مخطوط الكتاب بعيدا عن تناول المؤرخين المحدثين ، وإنما كان ميسرا الاطلاع عليه بمكتبة المعهد المصري بمدريد ولذلك نشر منه أربع قطع قبل نشره كاملا ، ويحسن ان نشير الى هذه القطع حسب ترتيب نشرها :

- ١- «وصف جديد لقرطبة الاسلامية» بقلم الدكتور حسين مؤنس بمجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، العدد ١٤ (٦٥ - ١٩٦٦م) .
 - ٢- «رواية جديدة عن فتح المسلمين للأندلس ، دعوة الى ترديد النظر في الموضوع» أيضا للدكتور حسين مؤنس ونشر في نفس المجلة المشار اليها ، العدد ١٨ عام ١٩٧٥/٧٤ م .
 - ٣- وصف جغرافي لمدن قطلونيا حسب مخطوط عربي لم ينشر بالمكتبة الملكية بالرباط وذلك بقلم باحث اسباني قدم له بدراسة جيدة وان أخطأ في نقل الكلمات العربية وفهمها فهما حقيقيا .
 - ٤- «حملات المنصور بن أبي عامر حسب نصوص جديدة» ، نشرها الدكتور لويس مولينا بمجلة القنطرة التي تصدر عن المجلس الاعلى للابحاث العلمية في اسبانيا العدد الثاني ١٩٨١م .
- كما أشار الى مخطوطة الكتاب ، واستفاد منها عدد كبير من الباحثين والدارسين العرب والأجانب الذين أتبع لهم رؤية صورة المخطوطة بالمعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد أو المخطوطة الاصلية بمكتبات المغرب .

محتوى كتاب «الذكر» :

يبدأ الكتاب بالتحديد الجغرافي لبلاد الأندلس ، وذكر ما خصت به هذه البلاد من الأشجار والنبات والمعادن والأحجار حيث هي كما قال فيها ابو عمارة البصري :

لله أندلس وما جمعت بها من كل ما ضمت لها الأهواء
كأنما تلك الديار كواكب وكأنما تلك البقاع سماء

وينتقل الى الحديث عن فضل الأندلس ، وما نقل في شأنها وفضلها من الأحاديث الواردة حيث خرّج ابن بشكوال امام المحدثين بالأندلس الحديث النبوي «ان الأندلس حيها سعيد وميتها شهيد» . ومن كتاب فضل الأندلس خرّج مسلم رضي الله عنه في صحيحه عن هشام بن بشير الواسطي عن داوود بن أبي هند عن أبي عثمان الهندي عن سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» . وروي عبد الملك بن حبيب بسند عن النبي ﷺ أنه قال : تفتح بعدي جزيرة بالمغرب يقال لها الأندلس ، حيها سعيد وميتها شهيد ولهم مع العدو كل يوم وقائع وغارات فانهم يسكنونها على رغم العدو ، على قلتهم وانقطاعهم اذ بين أيديهم بحر مهلك ومن وراءهم عدو مدرك ، والعدو في قُـرهم واتصال بلادهم ، فلا يرى بالأندلس غير سامر في ذات الله أو مجاهد في سبيل الله أو مجاور للعدو ومطيع لله» . ص ٩ - ٢٦ .

جغرافية الأندلس:

سبقت الإشارة الى انقسام الكتاب بصورة واضحة الى جزئين أحدهما جغرافي والآخر تاريخي ، ويبدأ الجزء الجغرافي بقوله :

«الخبر عن بلاد الأندلس على التفصيل مدينة بعد مدينة ، وما اختصت به كل مدينة من الفضائل والمحاسن» . ويقول :

«والأندلس في ديوان العجم جزيرة خضبية مخصوصة بكثرة البر والبحر وأنواع الفواكه والنعم كثير النسل عظيمة البركة كثيرة الصيد من الوحش والطير والحوت ، طبيعة البقاع والتربة ، عذبة المياه» . ص ٢٩ .
«وأهل الأندلس أشد الناس عضدا ، وأصعبهم قيادا . يقال ان قيصر الاعظم الذي كان على عهد عيسى عليه السلام كان قد طاع لسطوته أكثر أهل الدنيا ولم يقاتل في كل من لقي من الأمم أصعب منهم ولا أشد بأسا ونجدة في الحرب» . ص ٣٠ .

قرطبة :

أما قرطبة فهي قاعدة الأندلس وقطبها وقطرها الأعظم ، وأم مدائنها ومسكنها ومستقر الخلفاء ، ودار المملكة في النصرانية والاسلام ومدينة العلم ، ومقر السنة والجماعة نزلها فيما نقل رجل من الصحابة وجملة من التابعين ، وتابعي التابعين رضي الله عنهم أجمعين ، - ولقد سبق لي مناقشة مسألة وجود الصحابة في قرطبة في كتابي «تاريخ التعليم في الأندلس» ، أنظر الصفحات من ١٥٦ - ١٥٧ ... واتصلت بها العمارة في أيام بني أمية ثمانية فراسخ طولاً وفي عرضها فرسخين ، وذلك من الاميال اربعة وعشرون ميلا في الطول وستة أميال في العرض كل ذلك ديار وقصور وبساتين ومساجد وقيساريات وخانات وأسواق وحمامات بطول ضفة الوادي المسمى بالوادي الكبير وليس بالأندلس نهر يسمى باسم عربي غيره ... ص ٣٠ - ٣٥ .

المسجد الجامع :

وبعد ان يفصل القول عن مدينة قرطبة في حوالي خمس صفحات فانه ينتقل الى الخبر عن جامع قرطبة جبرها الله للاسلام وصفة بنائه ، وقدر مساحته كما حكى خبره ، ثم يقدم لنا تاريخ المسجد حين دخول المسلمين ، وبناءه والزيادات التي طرأت عليه خلال حكم الامير هشام وعبدالرحمن الاوسط ، والناصر ، والحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر ، ويعدد لنا «سواريه الحاملة لسقفه والملاصقة لبنائوه وقبابه ومناره ما بين كبار وصغار ألف سارية وأربعمائه سارية وتسع سوار منها بداخل المقصورة مائة سارية وتسع عشرة سارية ومنها في الصومعة من خارجها ومن داخلها مائة وأربعون سارية ومنها الحاملات لسقف البلاطات وما اتصل بها ألف سارية ومائتان وثلاث وخمسون سارية» .

ويتحدث عن منار الجامع ومساحته وصفته ثم يصل الى «وعدد ثرياته الصغار مائتان وخمس وثلاثون ثرية في كل ثرية منها ستة أكولس ، وعدد ثرياته الكبار تسع وثمانون ثرية منها في الصومعة خمس ، ومنها في بلاط القبلة أربع وهي أعظمها تحمل كل ثرية منها سبعة أرباع من الزيت تحترق فيها في ليلة واحدة ، إلى ان يصل الى القول «وليس بالأندلس ولا في بلاد الاسلام جامع أكبر منه» الصفحات من ٣٥ الى ٤٠ .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى ذكر اقاليم قرطبة وعددها داعيا الله سبحانه وتعالى ان يعيدها الى الاسلام بفضلله ومنه ، وهي خمسة عشر اقليما كل اقليم منها يحتوي على حصون وقرى وپروج كثيرة .
ومن قرطبة واقليمها ينتقل الكاتب الى وصف المدن المجاورة فيذكر مدينة «قبره» وهي مدينة أزلية كثيرة الفواكه ، عليها من القرى ستمائة قرية ونيف وثلاثون قرية ، وسبعون حصنا وثلاثمائة برج . ومدينة «جيان جبرها الله للاسلام وهي التي جمعت بين طيب الأرض وسعتها وعذوبة الماء وكثرة الثمار والعيون .

طليطلة :

لطليطلة مكانة خاصة في تاريخ وجغرافية الأندلس ، فهي كما وصفها المخطوط ، «مدينة أزلية من بنيان الأول عظمة القدر ، جليلة الوضع ، قديمة البناء ، منيعة حصينة كثيرة المياه والثمار» . ص ٤٧ . ولقد كانت هذه المدينة مقر الحكم القوطي عند دخول المسلمين الأندلس ، وظلت تلعب دورا هاما خلال الحكم الاسلامي ، وهي أول مدينة تسقط في أيدي المسيحيين وأحدث سقوطها دويا هائلا في العالم الاسلامي عامة وفي الأندلس خاصة ، حتى نادى الشعراء في ذلك الحين بالرحيل عن الأندلس نتيجة لتلك الصدمة القاسية ، فقال أحدهم :
حثوا رواحكم يا أهل أندلس فما البقاء بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة ينسل من الوسط
وحين استطاع الفونسو السادس احتلال طليطلة اتخذها عاصمة لمملكة قشتالة وظلت موطننا للمملكة
الاسبانية عصورا طويلة .

علم الزرقال وجهل الاسبان واليهود :

وحين الحديث عن مدينة طليطلة يروي لنا هذا الكتاب عن عمل قام به الفلكي الأندلسي المسلم عبدالرحمن الزرقال بطليطلة اسماء «البيلتين» وكانا في جوب النهر الأعظم في الموضع المعروف بباب الدباغين .
«ومن عجبها انهما تملآن مع زيادة القمر ، وتحسران وتنقصان مع نقصانه» ص ٤٨ ، ويصف المؤلف هاتين «البيلتين» بأنهما «أعجب من الصنم الذي بالهند لأن ذلك في نقطة الاعتدال من الفلك الاعلى والأرض السفلى وبالموضع الذي لا ينقص ليلة ولا يزيد نهاره ، وهذا الموضع خارج عن الاعتدال يزيد ليله ونهاره ينقصان فهما أغرب .

«وكانتا هاتان البيلتان في بيت واحد فلما ملك النصارى دمرهم الله تعالى مدينة طليطلة أراد «الفنش» لعنه الله أن يبحث عن حركاتهما ، فأمر أن تقلع الواحدة منهما لينظر من حيث يأتي اليهما الماء ، وكيف الحركة فيها فقلعت فانبطلت حركتها ، وكان قلعتها وفسادها في عام ٥٢٨ من الهجرة .
وقيل : كان السبب في فسادها حنين بن ربوة اليهودي المنجم لعنة الله تعالى وهو الذي جلب حمام الأندلس كلها الى طليطلة في يوم واحد وذلك عام ٥٢٧هـ ، وهو الذي أعلم «الفنش» أن حفيده سيدخل قرطبة ويملكها ، فأراد اليهودي لعنه الله أن يكشف عن حركة هاتين البيلتين فقال له : «أيها الملك . أنا أقلعها وأردها أحسن مما كانت ، وذلك أنى أردتها تملأ بالنهار وتحسر بالليل ، فلما قلعتها لم يقدر على ردها وانما أراد الملعون أن يسرق صناعتها ، فبقيت الواحدة مبطولة والثانية تعطي حركتها» . ص ٤٩ .

لشبونة عاصمة البرتغال:

من المعروف ان بلاد الأندلس شملت كلا من اسبانيا والبرتغال ، وان اقتصر الحديث على اسبانيا فحسب ، ويشير كاتبنا الى مدينة أشبونة بينها «مدينة عظيمة أزلية كثيرة القطر ، هي على البحر الاعظم المحيط وعلى آخر النهر المعروف بنهر تاجة حيث يصب في البحر فهي برية بحرية ، وبها أرزاق كثيرة وخيرة واسعة ، ص ٥١ .
ثم يتحدث المؤلف عن بلاد غرب الأندلس ، وأغلبها ضمن أراضي البرتغال حاليا ، فيذكر مدينة شنترين ، ومدينة شلب التي كانت مرتع صبا المعتمد بن عباد ملك أشبيلية المعروف ، ومن قوله فيها بأنها «فاقت جميع

بلاد الأندلس بكثرة الخيرات السنية والفواكه الشهية والصيد الكثيرة البرية والبحرية فازت بذلك شرفا باذخا وفخرا ساميا ، ذكره أبو عبد الله محمد بن مزين الأزدي في تاريخه المسمى «المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» ص ٥٤ .

شرق الأندلس :

لا يمضي المؤلف على خطة معينة في تناوله بلاد الأندلس حيث يذكر هنا مدينة «باجه» من بلاد شرق الأندلس ، لينتقل الى مدينة «ماردة» من بلاد جوف الأندلس ليعود الى الحديث عن مدينة «ليلة» الحمراء من غرب الأندلس ليصل الى الجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس .

أشبيلية :

هي عاصمة الأندلس الثانية بعد قرطبة ، بل عاصمة الأندلس الادبية والفنية على مدار تاريخه ومن حكامها المعتمد بن عباد أشهر شعراء الأندلس وأخلدهم ذكرا ، وجديرة بأن يخصص لها المؤلف ثلاث صفحات و «هي أعظم المدن وأكبرها ، قاعدة بلاد الأندلس وحاضرتها ومدينة الأدب واللهو والطرب ، وهي على ضفة الوادي الكبير عظيمة الشأن ، طيبة المكان لها البر المديد والبحر الساكن والوادي العظيم قربت من البحر المحيط» ، ص ٦٠ - ٦١ .

سرقسطة :

ويصعد المؤلف الى الشمال ، الى الثغر الاعلى ، ليصور لنا عاصمة بني هود بأنها المدينة التي نزلها واختصها بنو الانصار والتابعون رغبة فيها من أجل الخبر الوارد فيها ، ص ٧٠ .
«وتسمى بالبيضاء لأن عليها نور مشرق وبها رجالان من الصحابة مدفونان ، وهما حنش الصنعاني وفرقد الشنجي رضي الله عنهما ، وهما مدفونان في قبلة الجامع أمام المحراب من خارجه ...
ولها أعمال كثيرة ، ومدن وحصون وقرى منها مدينة سالم (حيث دفن المنصور بن ابي عامر) ومدينة يارشة وروطة .. ص ٧٠ - ٧١ .

بلنسية :

عاصمة شرق الاندلس ، وأهم قواعده ، وارتبطت بسقوطها في يد «السيد القمبيطور» الذي أحرق قاضيها «ابن جحاف» حيا أمام أهله وسكان المدينة ، وهي قصة مروعة في التاريخ الأندلسي ، وقد ذكر المؤلف استخلاص المرابطين لها من أيدي المسيحيين الى ان عادت مرة ثانية للسقوط في أيديهم على يد «ملك برشلونة» ، ويصف الكتاب بلنسية بأنها من أعلا المدائن وبقعتها بقعة طيبة ذات انفساح ، وبها مبان شريفة وقصور رائعة ، وبساتين مؤنقة ...

وهي دار علم وفقه وآداب خرج منها جملة من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وأهل اللغة ، ص ٧٣ .
ويختتم المؤلف هذا القسم الجغرافي بالحديث عن طرطوشة ودانية ومرسية وبسطة وطلاطة وأخيرا مدينة المرية كلاًها الله . وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر وهي محدثة أحدثها العرب في الاسلام وكانوا يرابطون فيها .

تاريخ الأندلس في الكتاب :

يقسم المؤلف القسم التاريخي من كتاب «ذكر بلاد الأندلس» الى عدد من الفصول يتناول في الأول منها «ذكر من نزل الأندلس من الأمم والملوك من الطوفان الى أن فتحها الاسلام» ويرى أن أول من نزلها قوم من ولد «أندلس من نقرش بن يافث بن نوح عليه ومن هنا جاءت التسمية بالأندلس ، ثم يتحدث عن هجرة الافارقة الى الأندلس في رواية خيالية . ثم يروي قائمة طويلة بأسماء الملوك الذين حكموا هذه البلاد حيث يرى أن الافارقة أقاموا بالأندلس مائة ست واثنين وخمسين عاما .

وينتقل بعد ذلك للحديث عن «الملوك الرومانيين من اليونانيين بالأندلس ، وعدد ملوكهم» ، ويقدم أيضا قائمة بأسماء ملوك الأندلس من الرومان وهي قائمة طويلة تعتبر من أجمل الاضافات التاريخية التي يزودنا بها هذا المخطوط .

ويصل بالحديث الى دولة القوط في الأندلس ، وهو العصر السابق مباشرة على الفتح الاسلامي واسماء ملوكهم حتى يصل الى لذريق» آخر ملوك القوط ، وقيامه بفتح البيت الذي كان يحوي الطلسم الحامي للأندلس مما يبشر بسقوط الأندلس .

عصر الولاة في الأندلس .

في هذا الباب الذي عنون «باب ذكر فتح المسلمين للأندلس ومن ملكها من أمراء العرب الى أيام عبدالرحمن الداخل يتناول قيام موسى بن نصير بايفاد طارق بن زياد لفتح الأندلس ، وانتصار طارق على لذريق وانتقال موسى الى الأندلس واكمالهما عملية الفتح الخالدة في ما لايزيد عن ثلاث سنوات فقط . ثم ينتقل الى الخبر عن ولاة الأندلس من العرب من حين فتحها الى أيام عبدالرحمن الداخل رحمه الله ، موردا أسماء هؤلاء الولاة حسب ترتيب توليتهم .

عصر الامارة بالأندلس :

يخصص الفصل السادس من الكتاب للحديث «عن دخول عبدالرحمن بن معاوية الأندلس وتملكه عليها هو وبنوه من بعده» ، ويقدم في بداية الفصل مختصرا بأسماء أفراد الاسرة الاموية الذين حكموا الأندلس وهم عبدالرحمن بن معاوية ، هشام بن عبدالرحمن ، الحكم بن هشام ، عبدالرحمن بن الحكم ، محمد بن عبدالرحمن ، المنذر بن محمد وعبدالله بن محمد ، ثم عبدالرحمن الناصر ، والحكم المستنصر ، وهشام المؤيد .. الخ .

ويعود الى التفصيل الموسع فيذكر لعبدالرحمن الداخل مولده وصفته وكنيته وفصاحته وشعره ، ويذكر قضاته وغزواته وحروبه وأعماله وصراعه مع العباسيين . وتأسيسه المسجد الجامع في قرطبة الى أن يقول : «وهو أبو الاموية من بني أمية بالأندلس ، وكان له من فتح البلاد ذات الأعادي ، وتوكيد الملك ما لم يكن لأحد من آبائه رحمة الله عليه» ص ١٠٧ - ١١٨ .

وبعد عبدالرحمن الداخل يتناول بالتفصيل حكم الامراء من بعده بتفصيل واسع قد لا تأتي به مصادر التاريخ الأندلسية الأخرى باستثناء عمدة مؤرخي الأندلس ، أبو مروان بن حيان .

عصر الخلافة في الأندلس :

نحن الآن مع مطلع القرن الرابع الهجري في الأندلس وصعد الى عرض الامارة عبدالرحمن بن محمد حفيد عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الأسط الذي تلقب لأول مرة بأمره المؤمنين ومن ثم أصبح أول خليفة أموي منذ سقطت الدولة الأموية في عام ١٢٢هـ ، ومن ثم يركز المؤلف حديثه على هذا العصر فيذكر صفته وكنيته ووالدته ، وقضاته ووزرائه وعماله وشعره الى أن ينتهي الى مدينة الزهراء التي بناها الناصر فيسهب القول في وصفها وعمارتها فهي من «أنبل ما بناه الأنس وأجله خطرا وأعظمه شأنا وأغرب ما بنى في الاسلام وأعجبه» . ص ٦٣ پ .

وأما ابنه الحكم المستنصر بالله ، فقد تولى عام ٣٦٦هـ ، وكان من «أهل الدين والفضل والورع ، ومن أعدل الملوك واتقاهم وأعملهم وأخملهم وأحمدهم وأحسنهم سيرة وأرفعهم قدرا وأعلاهم ذكرا ، وكان معتنيا بالعلم ، مقتنيا بالدفاتر مستجلبا للرواة ، مواظبا للجهاد مؤيدا منصورا ، لم تلحق الرعية في أيامه مذلة ولا نالتهم مظلمة ، وكان مع ذلك عالما ثبثا ذكيا وافيا ، وكان فقيها في المذاهب عالما بالانساب والسير حافظا للتواريخ عارفا بأيام الناس ، جمع أهل العلم من كل مصر» ص ١٦٩ .

ترك الحكم الخلافة لابنه هشام وهو صغير السن ، مما مكن للمنصور بن أبي عامر التمكن في أمر البلاد حتى ان عهد هشام يعرف باسم «الدولة العامرية» ولا غرابة في ذلك فقد أراد المنصور محاكاة بني أمية والتفوق عليهم ، وقد حالفه الحظ في غزواته وجهاده بحيث لم تنكس له راية ولم يهزم له جيش وخاض في ٢٧ عاما ما ينيف على الخمسين غزوة . كما أن للمنصور زيادة في المسجد الجامع تصل الى أكثر من نصف مساحته وأجزل العطاء لأهل الدور المجاورة للمسجد وأدخلها فيه .

وحكم بعد المنصور ولداه عبدالملك وعبدالرحمن ، لكنهما لم يكونا في حزم ودهاء المنصور مما ترتب عليه سقوط دولة بني عامر على عهد عبدالرحمن بن المنصور ودخول الأندلس كله عصرا سيئا ، دمر فيه كل شيء يسمى عصر الفتنة الذي لم ينته الا بتقسيم الأندلس الى ممالك الطوائف .

عصر الفتنة وملوك الطوائف :

تناول الكتاب باختصار هذين العصرين مما يبين لنا كراهيته لفترة الضعف في بلاد الأندلس ، وهي الفترة التي سمحت للمسيحيين في مملكة قشتالة وقطالونيا من التقدم والاستيلاء على بلاد المسلمين وخاصة مدينة طليطلة ، مما أوجب الاستنجاد بالمرابطين ويتوقف الكتاب عن ذكر الفتى الكبير خيران العامري الذي كان يحكم في شرق الأندلس ، وهو وزميله زهير العامري وهما من فتيان العامرية الذين هربوا بعد سقوط دولتهم في نهاية القرن الرابع الهجري .

خاتمة :

صدر الكتاب في مجلدين ، تضمن الاول منهما النص العربي للكتاب والفهارس المتنوعة للكلمات والقوافي والاماكن والاعلام ، ودراسة موجزة ، بينما تناول المجلد الثاني الترجمة الاسبانية للنص العربي ، والدراسة الكاملة التي حاولنا تقديم بعض نقاطها في هذا التعريف ثم الوصف وطريقة التحقيق واعداد المخطوطات التي وجدت من هذا الكتاب .

ومحقق الكتاب هو الدكتور «لويس مولينا» درس في قسم اللغة العربية بجامعة مدريد المركزية وحصل على
الليسانس في عام ١٩٧٨ ، ويعمل حاليا باحثا بالمجلس الاعلى للابحاث العلمية بمدريد في المعهد المعروف باسم
المستشرق الاسباني الكبير «ميغيل أسين بلاثيوس» ، وقد نشر المجلس هذا الكتاب في مدريد عام ١٩٨٣ م .